تمهيد

منهجية التفسير العلمي للقرآن الكريم

حدّث الترمذي بسنده عن علي بن أبي طالب – كرّم الله وجهه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ستكون فتن كقطع الليل المظلم" قلت: يا رسول الله، وما المخرج منها؟ قال: "كتابُ الله – تبارك وتعالى – فيه نبأُ مَنْ قبلَكم، وخبر ما بعدَكم، وحُكْم ما بيْنَكم، وهو الفصلُ ليس بالهزل، مَنْ تركه مِنْ جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، لا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يخْلَقُ على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجنّ إذ سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ (سورة الجن: ١). من علِمَ عِلْمَه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمِل به أُجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم".

والقرآن الكريم – من قبل ومن بعد – هو كتاب الإسلام الخالد الذي يوجه الإنسان نحو المعرفة العلمية قراءة وبحثًا وتعليمًا وتدوينًا وتطبيقًا ويبيّن لنا أن الكون كله كتاب منظور يدلّ ويبين على وجود الخالق ووحدانيته، ويوضح لنا أن التفكر في ظواهر الكون والحياة يؤدي إلى تعميق الإيمان بالله وزيادة الخشية منه على هدى وبصيرة. قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة الحج: ١٥٤).

ولما كان القرآن الكريم هو الأصل الأول للثوابت الإسلامية، فإن المسلمين مطالبون في كل زمان ومكان باستنهاض عزائمهم، وشحذ عقولهم، نحو فهمه فهمًا يغيّر من حياتهم إلى الأفضل دائمًا، ويضعهم في موضع يمكنهم من نشر لواء الإسلام في كل ربوع الأرض، باعتباره منهجًا ربانيًّا متكاملًا يحمل للناس كل ما فيه فلاحهم في الدنيا والآخرة. ولقد ظهرت مباحث في علوم القرآن تُعنى بجوانب إعجازه التي لا تحصى، ومنها إعجازه العلمي الذي يظهر من تفسير

آياته الكريمة في ضوء ما يستحدث دائمًا من حقائق علمية، فالإعجاز العلمي حالة خاصة من التفسير العلمي عندما يشير القرآن الكريم إلى حقيقة علمية كان من الصعب إدراكُها وقت نزوله بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ، مما يُظهر صدقه فيما بلغ عن رب العزة ﷻ.

ووصف التفسير أو الإعجاز بأنه (علمي) إذا هو نسبة إلى العلم التجريبي (الكوني) المعني بدراسة الظواهر المطردة في الآفاق وفي الأنفس، وصولًا إلى القوانين التي تفسر سلوك هذه الظواهر، وعلل حدوثها بحيث تتكشف حقائق الأشياء انكشافًا تامًّا، وتتجلى حقيقة الحقائق واضحة ساطعة، متمثلة في وجود الخالق الواحد جل وعلا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ...﴾ (سورة فصلت: ١٥٣).

وهنا يلزم التنبيه إلى أمرين مهمين

الأمر الأول، يتعلق بكلمة "إعجاز" ذاتها، حيث إن دلالتها غير دقيقة ولا سديدة، كما أنها توحي عند سماعها أو قراءتها بحصر اهتمامات المجتهد في فهم القرآن الكريم وتفسيره في دائرة بمعناه الاصطلاحي فحسب، والواقع أن جهود المهتمين بهذا المجال ليس من الضروري أن تتوصل إلى نتائج صحيحة دائمًا تدخل تحت مفهوم "الإعجاز العلمي"، باعتبار أن ما ينتهون إليه اجتهادات في خدمة تفسير القرآن الكريم وفهم معانيه.

وأما الأمر الثاني الذي ينبغي التنبيه إليه فيتعلق بوصف "العلمية" الذي يراد به العلم التجريبي (الكوني) في موضوعه وطرائقه على ما هو شائع على ألسنة كثير من المفكرين بصرف النظر عن صحة هذا الشائع وخطئه؛ ذلك أن الاقتصار على معنى العلم التجريبي فحسب فيه تضييق للواسع فضلًا عن أن فيه تسليمًا بالرأي المغالط في الثقافة الغربية، وإغفالًا للمدلول الواسع والشامل في الثقافة العربية الإسلامية، حيث إن الأصل في معنى "العلم" عند العرب هو الإدراك الصحيح لحقائق الأشياء، وتصنيف العلوم – إلى دينية أو دنيوية، أو نقلية وعقلية، أو شرعية وطبيعية، أو نظرية وتجريبية، أو غير ذلك – هو تصنيف يعتمد على الصفات المعبرة عن موضوعات العلم، أو مصادره، أو

الطرائق التي يتم تحصيله بها بحسب تناسبها وقرب بعضها من بعض. لكن هذين الأمرين – على أهميتهما – لم يحجبا عن الأذهان المراد الحقيقي من مصطلحي "التفسير العلمي" و"الإعجاز العلمي" الشائعين والمعروفين على الألسنة، حيث لا مشاحة في الاصطلاح كما يقولون.

موقع التفسير العلمي من بقية التفاسير

"التفسير" في اللغة: مصدر الفعل "فَسَّرَ"، ومعناه: التوضيح والكشف فيقال: فسَّر الشيءَ: وضَّحه، وفسَّر آيات القرآن الكريم: شرحها ووضح ما تنطوي عليه من معانٍ. وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (سورة الفرقان: ٣٣). أى أحسن إيضاحًا وتفصيلًا.

والتفسير في اصطلاح علماء الشريعة الإسلامية هو: توضيح معنى الآية. وشأنها، وقصتها، والسبب الذي نزلت فيه، بلفظ يدلُّ عليه دلالة ظاهرة. ذكر الزرقاني في "مناهل العرفان" أنه علم يُبحث فيه عن القرآن الكريم، من حيث دلالته على مراد الله – تعالى – بقدر الطاقة البشرية.

وقد مرّ علم التفسير في نشأته وتطوره بمرحلتين رئيستين هما: مرحلة ما قبل التدوين في عهد النبي ﷺ وصحابته ﷺ وفي عهد التابعين، ثم مرحلة التدوين التي بدأت في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية. وقد استمرت حتى العصر الحاضر.

وظهرت اتجاهات متعددة في التفسير أهمها: التفسيرُ بالمأثور عن النبي ﷺ، أو عن الصحابة والتابعين، والتفسير الفقهي الذي يتناول "آيات الأحكام" الشرعية العلمية بالتفسير مع عرض مذاهب الفقهاء المختلفة، والترجيح بينها والتفسيرُ الإشاري أو الصوفي، ويراد به تأويلُ آيات القرآن الكريم على غير ما يظهر منها، بمقتضى إشارات خفية، تظهر لأرباب السلوك، ولا تتعارض مع الظواهر المستفادة من الآيات، والتفسيرُ بالرأي أو التفسير العقلي الذي يعتمد الرأي والاجتهاد بعد استجماع شروطهما، وقد اختُلِف في جواز هذا اللون من التفسير، فأجازه فريق من العلماء، ومنعه آخرون. هذا بالإضافة إلى ألوان

أخرى من التفاسير، منها التفسير الأدبي البياني، والتفسير الأدبي الاجتماعي، والتفسير الموضوعي، وغيرها.

أما التفسير العلمي فيراد به تفسير الآيات الكونية المذكورة في القرآن الكريم في ضوء معطيات العلم الحديث، على وجه يَظهر به إعجازُ القرآن الكريم، ويدلُّ على مصدره الإلٰهي، ويكشفُ عن صلاحيته لكل زمان ومكان.

فقد كان العرب الذين نزل فيهم القرآن يفهمون مثل هذه الآيات على حسب ظاهر ألفاظها، وما تعبر به عن قدرة الخالق سبحانه. وهذا يبرر لنا صدق الجهود المشكورة التي بذلها أسلافنا لاستجلاء بعض معاني آيات القرآن الكريم في ضوء المعارف العلمية المتاحة في عصرهم، والتي ظهر خطؤها فيما بعد عندما وصل العلم باكتشافاته إلى مرحلة أرقى. فتذكر المراجع أن أحد الفلكيين كان يقرأ كتاب "المجسطي" في الفلك لبطليموس على أستاذه الأبهري، وكتابُ "المجسطي" هذا يتضمن فصولًا عن هيئة الكون رآه فلاسفة الإغريق، وفيه تقع الأرض في مركز العالم، وتدور حولها الشمس والكواكب المعروفة آنذاك، وهو غير ما نعرفه في عصرنا من أن الشمس هي التي تدور حولها الأرض وبقية الكواكب، والمجموعة الشمسية تشغل حيزًا صغيرًا جدًّا على حافة طريق لبني يحتوي على بلايين النجوم. فبينما كان العالم الفلكي يقرأ على الأبهري كتاب "المجسطي" ذات يوم، دخل عليهما أحد الفقهاء وسألهما عما يقرآنه، فقال الأبهري إنه يحاول أن يفهم معنى آية من القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ (سورة ق: ٦). ويقول الفخر الرازي معلقًا على هذه الرواية: "ولقد صدق الأبهري فيما قال، فإن كل من كان أكثر توغلًا في بحار مخلوقات الله، كان أكثر علمًا بجلال الله وعظمته.

ومع تقدم الزمن، ازدادت معارف المسلمين بالعلوم الكونية، واتجه بعض العلماء إلى استخدام تلك المعارف في تفسير الآيات القرآنية التي تتعلق بالكونيات، واستمر الانتصار لهذا الاتجاه، حتى انتشر ذلك وتوسع في العصر الحديث، لما جدَّ من تقدم هائل في العلوم الكونية.

وقد لقي ذلك الاتجاه قديمًا وحديثًا مؤيدين ومعارضين، وتتمثل أدلة المؤيدين في دعوة القرآن إلى تدبر ما في الكون من آيات دالة على قدرة الخالق سبحانه، على حين تتمثل أدلة المعارضين في أن القرآن الكريم كتاب دعوة وهداية، وليس كتاب علم وكونيات نبحث فيه عن معادلات رياضية أو نظريات هندسية. وهذا – ولا شك – قول حق؛ ولكنه ليس كل الحق، وذلك أن الله قد شاءت حكمته أن يكون إرشادُ الناس وهدايتُهم بوسائل متنوعة وهو ﷻ خبير بعباده، فهو تارةً يخاطبهم بما يمسّ قلوبهم مسًّا رقيقًا، وتارةً أخرى يقرع عقولهم قرعًا قويًّا شديدًا. وكان من أبرز ما جلى به أبصارهم وأنار بصائرهم حضُّه إياهم على التدبر في آيات خلقه. وهذا ما شجع فريق المؤيدين من العلماء الذين يرون في التفسير العلمي للقرآن الكريم – وما يتضمنه من إعجاز علمي أيضًا، فتحًا متجددًا في طريق الدعوة إلى الله وهداية الناس إلى الإسلام الحنيف.

وقد أضاف الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه "التفكير فريضة إسلامية" ما يوضح معنى "الإعجاز العلمي" كحالة خاصة من "التفسير العلمي" للقرآن الكريم، فذكر أن هناك نوعين للمعجزة ينبغي التمييز بينهما؛ كي نطلب المعجزة التي يجب أن تطلب، ونتورع عن طلب المعجزة التي لا تجدي أحدًا من العقلاء.

أما النوع الأول فهي المعجزة التي تتجه إلى العقل، وهي موجودة يلتقي بها من يريدها حيثما التفت إليها، متمثلة في الاطراد المنتظم لظواهر الكون والحياة التي لا تتبدل ولا تتحول. وأما النوع الثاني فهي المعجزة التي تكون من خوارق العادات، فهي التي تدهش العقل وتضطره بالإفحام القاهر إلى التسليم، وهي ليست بحاجة إلى قدرة أعظم من القدرة التي نشهد من بدائعها ما يتكرر أمامنا كل يوم وكل ساعة.

والعالم الحق أحرى أن يعرف موضع العجب فيما يشاهده من سنن الله الكونية المألوفة في دوران الأفلاك، وخصائص المادة، وسلوك الكائنات والظاهرات الطبيعية، فليست أُلفته لها مما يصح أن يبطل العجب منها، ومن

قال هذا فهو هازل مستخف بالمعجزة التي تخاطب العقل وتستثير ملكاته، وهو أيضًا عاجز عن أن يجد في هذه المعجزة يد العناية الإلٰهية التي تُسيِّر حركة الكون والحياة.

ومن أسف أن يغيب مثل هذا التمييز الواضح بين نوعي المعجزة عن كثير من الباحثين الذين يقفون بتفكيرهم عند حد التفسير العلمي للظاهرة الكونية، دون أن ينبهوا إلى الإعجاز في خلقها، أو الذين يقحمون أنفسهم فيما لا يدركه العقل البشري المحدود في الغيبيات أو خوارق العادات التي لا تخضع للنواميس الطبيعية ولا للتجارب البشرية.

كذلك أدى غياب هذا التمييز الواضح بين نوعي المعجزة إلى الخلط أحيانًا بين "الإعجاز العلمي" الذي يقصد به سبق القرآن الكريم إلى الإخبار بحقيقة كونية قبل أن يكتشفها العلم التجريبي، وبين "التفسير العلمي" الذي يراد به الكشف عن معانٍ جديدة للآية القرآنية، أو الحديث النبوي، في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية، بمعنى أن تكون هذه العلوم في خدمة تفسير القرآن والسنة، مثلما خدمته علوم اللغة والأصول والفقه وغيرها من مجالات العلوم الشرعية.

ومن جميل الذكر أن نزيد هذا المعنى إيضاحًا بما جاء في كتاب "الكشف عن مناهج الأدلة" لابن رشد في طريقة الاستدلال التي يراها أبسط وأسهل وأكثر يقينًا في الدلالة على الله، حيث يقول: إنها الطريق التي نبَّه الكتاب العزيز عليها، ودعا الكل من بابها إذا استقرئ الكتاب العزيز وجدت تنحصر في جنسين؛ أحدهما طريق الوقوف على العناية بالإنسان. وخلق جميع الموجودات من أجله، ولْنُسمِّ هذا "طريق العناية"، والطريقة الثانية ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات، مثل اختراع الحياة في الجماد، والإدراكات الحسية، والعقل، ولنسمّ هذه "دليل الاختراع".

فأما الطريقة الأولى فتبنى على أصلين: أحدهما: أن جميع الموجودات التي هاهنا موافقة لوجود الإنسان، والأصل الثاني: أن هذه الموافقة هي – ضرورة – من قِبَلِ فاعل قاصد لذلك، مريد؛ إذ لا يمكن أن تكون هذه الموافقة

بالاتفاق (يعني بالمصادفة). فأما كونها موافقة لوجود الإنسان، فيحصل اليقين بذلك باعتبار موافقة الليل والنهار والشمس والقمر لوجود الإنسان، وكذلك موافقة الأزمنة (أي الفصول) الأربعة له. والنبات والجماد، وجزئيات كثيرة من الأمطار والأنهار والبحار، وبالجملة الأرض والماء والنار (والهواء)، وكذلك أيضًا تظهر العناية في أعضاء البدن، وأعضاء الحيوان أعني كونها موافقة لحياته ووجوده وبالجملة فمعرفة منافع الموجودات داخلة في هذا الجنس، ولذلك وجب على من أراد أن يعرف الله تعالى المعرفة التامة أن يبحث عن منافع الموجودات.

وأما دلالة الاختراع فيدخل فيها وجود الحيوان كله، ووجود النبات كله، ووجود السماوات... وفي هذا الجنس دلائل كثيرة على عدد المخترعات، ولذلك كان واجبًا على من أراد معرفة الله حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء؛ ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات؛ لأن من لم يعرف حقيقة الشيء، لم يعرف حقيقة الاختراع، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ (سورة الأعراف: ١٨٥).

ثم يقول ابن رشد: "وتبين أن هاتين الطريقتين يقصد دلالة العناية ودلالة الاختراع هما بأعيانهما طريقة الخواص، وأعني بالخواص العلماء، وطريقة الجمهور، وإنما الاختلاف في المعرفتين في التفصيل: أن الجمهور يقتصرون – من معرفة العناية والاختراع – على ما هو مدرك بالمعرفة الأولى المبنية على علم الحس، وأما العلماء فيزيدون على ما يدرك من هذه الأشياء بالحس، ما يدرك بالبرهان...

هكذا اهتدى الأسبقون إلى تفاوت الناس في فهمهم للقرآن الكريم، ونَقَل عن الراغب الأصفهاني من كتابه "مقدمه التفسير" ما نصه: "ثم إن القرآن وإن كان في الحقيقة هداية للبرية: فإنهم لن يتساووا في معرفته، وإنما يحظون به بحسب درجاتهم واختلاف أحوالهم، فالبلغاء تَعْرِف من فصاحته، والفقهاء من أحكامه، والمتكلمون من براهينه العقلية، وأهل الآثار من قصصه ما يجهله غير المختص بفنه.

ولعله من فضول القول أن نقول بعدما قدمناه: إن علماء العلوم الطبيعية ليسوا بدعًا بين هؤلاء الذين ذكرهم الأصفهاني... وأعتقد أنه ينبغي على المتمكنين من العلوم الطبيعية أن يتقدموا لينالوا شرف الإسهام في خدمة تفسير القرآن الكريم في هذا الزمان، وإنما بضوابط دقيقة ومنهاج قويم.

التفسير العلمي ليس تفسيرًا بالرأي

التفسير العلمي إذن – بما يتضمنه من إعجاز قرآني – ليس من قبيل ما أسماه السابقون "التفسير بالرأي"، واختلفوا فيه اختلافًا كبيرًا، وانتهى فيه بعضهم إلى الإباحة بشروط، وإنما هو من قبيل ما نجده واضحًا في عدد من التفاسير الشهيرة للآلوسي والطبري والبيضاوي وابن كثير وغيرهم، على ألا يكون المقصود منه إقحام حقائق العلم على التفسير إقحامًا، بافتعال مناسبات حشرها، أو بالإسراف في التأويل وليّ ألفاظ القرآن الكريم وآياته للجمع بينه وبين حقيقة علمية أو فرض لم يزل في حاجة إلى تمحيص، أو بالتهجم على الغيبيات وتصويرها كما يزينها الخيال أو الهوى. ومن أسف أن هذا كله قد حدث فأساء إلى الهدف النبيل، وأثار ثائرة الغيورين على كتاب الله أحيانًا إلى درجة التطرف في رفض أي اجتهاد مقبول ومعقول في خدمة علم التفسير الشريف، وضاعف من تيار المعارضين عمومًا لربط العلم وحقائقه بالقرآن وآياته.

ولعل جزءًا من أسباب الرفض التام لوضع العلم في خدمة تفسير القرآن الكريم وتجلية معانيه يعود إلى خطأ شائع في فهم بعضهم لما يسمى "بحقائق العلم" على أنها ليست سوى فروض ونظريات لم يثبت العلم ذاته يقينها النهائي. وهذا القول على إطلاقه – هكذا – لا يقل خطأ عمّا يقوله آخرون من أن العلم الطبيعي هو المصدر الوحيد للحقيقة، وكل ما سواه وهْم باطل لا يمت إلى الواقع بصلة. والقائلون بهذا وذاك يخلطون بين مفاهيم من قبيل "القانون العلمي" و"الحقيقة العلمية" و"النظرية العلمية" و"الفرض العلمي" و"الموضوعية العلمية"، وغير ذلك مما يستخدم في وصف لغة العلوم الكونية وتحليلها؛ نظرًا لتداخل مدلولات هذه المفاهيم إلى الحد الذي يتعذر معه وضع حدود فاصلة

بين استخداماتها.

من ناحية أخرى، ربما يستند بعض المعارضين للتفسير العلمي للقرآن والسُّنَّة إلى واقع العلم ذاته عندما يبدو لهم كما لو كان قد تخلى في بعض قوانينه الجديدة عن مفاهيم أساسية قامت عليها قوانينه القديمة، مما يعني – في اعتقادهم – أن نتائج العلم غير يقينية، وأن العلماء عرضة للخطأ والقصور. لكن هذا ينبغي ألا يعني أن القوانين العلمية التي يتوصل إليها الباحثون بعد اختبار تجريبي دقيق غير صحيحة. فقوانين "إسحاق نيوتن" عن – "الجاذبية" – مثلًا – تعبّر عن حقائق موضوعية بأعلى درجة ممكنة من الصدق واليقين؛ لأننا اختبرنا صحتها أمام أعيننا في عالم الواقع، وأفدنا من نتائجها في إنجاز تقنيات متقدمة ساعدتنا على ارتياد أجواز الفضاء، واختراع أقمار صناعية تدور حول الأرض مثلما يدور القمر الطبيعي، وأكدت تصوراتنا عن كروية الأرض ودورانها، وجريان الشمس لمستقر لها، وحركات الكواكب والأقمار في أفلاكها. ولم يبطل هذه الحقائق ما ظهر حديثًا من نظريات علمية تتعلق بالنسبية، والكم، والاحتمالات، وغيرها.

وهكذا نجد أن الحقيقة الكونية التي يعرف رجال العلم معناها وحدودها لا تبطل مع الزمن، ولكنها قد تزداد مع جهود العلماء المتتابعة تفصيلًا ووضوحًا وجلاء. كل ما في الأمر أن القوانين العلمية تعبّر عادة عن حقائق علمية محدودة، وليس من الصواب أبدًا أن تعدّ هذه الحقائق الجزئية دليلًا على قصور العلم أو منقصة فيه، فطبيعة المعرفة العلمية تتميز بالتنامي والاطراد في اكتشاف القوانين التي تلقي الضوء شيئًا فشيئًا على حقائق الواقع الثابت في الكون بعد أن أشارت إليها آيات من القرآن العظيم، ولهذا فإننا نقول: إن التفسير العلمي للقرآن ليس تفسيرًا بالرأي (العقلي الذاتي)؛ ولكنه تفسير برأي (حقائق) العلم. وبناءً عليه لا يرى بعض العلماء المعاصرين مانعًا من الاجتهاد في فهم ما لم يستقر عليه رأي المتأولين، أو ما لم ينته فيه العلم إلى رأي قاطع، ما دمنا لا نمسّ جوهر التفسير، أو نجزم بأن هذا هو المعنى المقصود، مسلّمين بأن الله أعلم بمراده، فلماذا لا نقدم غاية ما يبلغه اجتهادنا وترتاح إليه نفوسنا وعقولنا في ضوء فهمنا لنشأة الكون، وهي قضية غيبية،

أَمَرَ القرآن بالبحث فيها للوقوف على كيفية فتق السماوات والأرض، وفي ضوء ما أخبر به العلم عن أضواء الكواكب والنجوم ونحو ذلك. إنها ليست أكثر من خدمة علمية للتفاسير، تضم إليها أو تنفصل عنها.

منهج التفسير العلمي للقرآن الكريم

إذا كانت قضية الربط بين العلوم الكونية والقرآن الكريم تتعرض لنقد لاذع بسبب إفراط بعض المتحمسين أو تفريط غيرهم من الرافضين والمعارضين، وأمام الحاجة الماسة إلى هذا النوع من الدراسات القرآنية لتنشيط حركة الدعوة الإسلامية المعاصرة؛ فإنه أصبح ضروريًّا أن يكون لذلك الاجتهاد منهاج، وأن يوضع للمجتهد ضوابط وشروط، وأن ينبه إلى مزالق الخطأ وموارد الزلل وكبوات الاجتهاد، ولن نفترض أبدًا سوء النية أو التواء القصد عند ذلك النفر من الباحثين الدائبين في هذا الاتجاه؛ إذ لا ينبغي لمسلم أن يسيء بأخيه ظنًّا، إنما عليه أن يذكّر بعظم إثم التكلم في كتاب الله بغير علم، وأن ينبه إلى المحاذير والأخطار التي قد تتوالد من فكرة، أو رأي، أو تصور أراد به صاحبه خيرًا؛ ولكنه انتهى إلى غير ذلك.

ويمكن إيجاز الإطار العام الذي توصل إليه عدد من الباحثين المعاصرين في منهج التفسير العلمي أو الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسُّنَّة النبوية المشرفة في النقاط التالية:

أولًا: علم الله – تعالى – هو العلم الشامل المحيط الذي لا يعتريه خطأ ولا يشوبه نقص، وعلم الإنسان محدود، يقبل الازدياد، ومعرض للخطأ. ولقد نزلت نصوص الوحي بألفاظ جامعة تحيط بكل المعاني الصحيحة في مواضيعها، التي قد تتابع ظهورها جيلًا بعد جيل. وإذا جمعت نصوص الكتاب والسُّنَّة الصحيحة، وجدت بعضها يكمل بعضها الآخر، فتتجلى بها الحقيقة، مع أن هذه النصوص قد نزلت مفرقة في الزمن، وفي مواضعها من الكتاب الكريم، وهذا لا يكون إلا من عند الله الذي يعلم السر في السماوات والأرض.

ومن ثم فإنه لا يوجد تعارض بين نصوص الوحي القاطعة التي تصف الكون وأسراره على كثرتها، وبين الحقائق العلمية المكتشفة على وفرتها، فالحق

لا يتعارض مع الحق، بل يوافقه ويشهد له. وإذا وقع تعارض في الظاهر، فلابد أن هناك خللًا في اعتبار ما هو قطعي من الوحي أو العلم الكوني.

ثانيًا: يجب التقيد بما تدلُّ عليه اللغة العربية، فلابدَّ من:

١-مراعاة معاني المفردات كما كانت في اللغة إبان نزول الوحي. وكذلك مراعاة فقه استعمالها.

٢-مراعاة القواعد النحوية ودلالاتها.

٣-مراعاة القواعد البلاغية ودلالاتها، خصوصًا قاعدة ألا يخرج اللفظ من الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية.

ثالثًا: يجب البعد عن التأويل في بيان التفسير العلمي للقرآن والسُّنَّة، أو على الأقل، لا ينبغي الإسراف في ذلك.

رابعًا: يجب ألا تجعل حقائق القرآن موضع نظر، بل تكون هي الأصل، فما وافقها قُبل، وما عارضها رُفض؛ ذلك أن المرجعية يجب أن تكون للحقائق القرآنية، وليس للعلم التجريبي؛ فالحقائق العلمية تحتكم إلى القرآن وتزكيه، فإن وافقته فبها ونعمت، وإن تعارضت معه رفضت؛ لأن النصّ القرآني وحي من الذي أحاط بكل شيء علمًا.

خامسًا: يجب على المجتهدين من العلماء أن يكونوا ملمين من علوم القرآن بالقدر الكافي، وأن يكون لديهم استعداد شخصي خاص يعززه رجوعهم إلى أمَّات كتب التفسير الأصلية رجوع المتعلم المتأني، لا اطّلاع القارئ العجول. فإذا تعذر عليهم هذا كان عليهم أن يسألوا أهل الذكر والاختصاص فيما لا يعلمون، فهذا أقل مقتضيات التحري والتحرز وعدم التورط في الكلام في كتاب الله بغير علم.

سادسًا: كذلك يجب على المجتهدين من الباحثين في التفسير العلمي للقرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة أن يكونوا على معرفة تامة بالظاهرة العلمية قيد البحث وتاريخ المصطلحات الفنية المتعلقة بها.

سابعًا: التفسير العلمي يقتضي تعاونًا تامًّا بين نفر من المهتمين في تخصصات علمية منوعة، من بينهم فقهاء اللغة وعلماء الدين الذين يقرون

التزام القواعد المعروفة في أصول التفسير من الالتزام بما تفرضه حدود اللغة وحدود الشريعة والاحتياط الواجب الذي يلزم كل ناظر في كتاب الإسلام الخالد الذي "لا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه".

ومن أشهر التفاسير التي اهتمت بالجوانب العلمية في القرآن الكريم تفسيران؛ أحدهما: قديم، وهو "مفاتيح الغيب" للرازي (ت: ٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، والآخر: حديث، هو "تفسير الجواهر" للشيخ طنطاوي جوهري (ت: ١٣٥٩هـ ١٩٤٠م). كذلك أعدت لجان من الخبراء المعاصرين "المنتخب في تفسير القرآن الكريم"، إصدار المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، و"قاموس القرآن الكريم"، إصدار مؤسسة الكويت للتقدم العلمي. وتميّزت التعليقات العلمية في "المنتخب" بالإيجاز في هامش مستقل حتى لا تعطل استمرار القراءة في التفسير الأصلي، بينما جاءت التعليقات العلمية في "القاموس" بشيء من التفصيل لتيسير الفهم والإقناع.